

الفصل الرابع

بصائر في تدبر القرآن

١ - اعلم أن الهدف الأساسي من قراءة القرآن هو العمل بما فيه واتخاذ منهج حياة، ولن يكون ذلك على أتم الوجوه حتى يقبل العباد على تلاوته وتدبره وتفهم معانيه، فيستشعرون حلاوته وتزداد خشيتهم لربهم وخوفهم ورجاؤهم وزهدهم وتوكلهم وصبرهم وشكرهم ورضاهم وورعهم، وكذا كل العبادات القلبية، وحينئذ يصير القرآن منهج حياتهم ودستورها. وأما مجرد تلاوة حروفه وكلماته دون عمل به، فهو حجة على العباد. قال في (الظلال): «واعلم أنه سيظل هنالك حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن طالما نتلوه أو نسمعه كأنه مجرد ترانيم تعبدية لا علاقة لها بواقعات الحياة البشرية اليومية التي تواجهنا..... بينما الآيات نزلت لتواجه نفوساً ووقائع وأحداثاً حية، ذات كينونة واقعية حية». وقال أيضاً: ولن ننتفع بالقرآن حتى نقرأه

لنلتمس عنده توجيهات حياتنا في يومنا وفي غدنا، كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعة. وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد، وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي.

وقال أيضاً: لقد نجح الصحابة في التعامل مع القرآن والتفاعل به، لأنهم كانوا حريصين على ألا يستقوا إلا من نبعه الرباني الصافي، ولأن الرجل منهم كان يخلع على عتبة القرآن كل ما فيه، ويدخل عالم القرآن بدون مقررات مسبقة، لتتم صياغته صياغة قرائية فريدة، ولأنهم تلقوه للتنفيذ والعمل لا للثقافة والمتاع، أو التذوق والاطلاع.

٢ - تدبر القرآن هو أساس العمل الصالح:

قال ابن القيم: وكلُّ من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح ... وكما أن البدن محتاج أن يرقى بالأغذية المصلحة له، والحمية عمّا

يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه ومنعه مما يضره، فكذلك القلب: لا يزكو ولا ينمو ولا يتم صلاحه إلا بذلك ... ولا سبيل له إلى الوصول لذلك إلا من القراءان، وإن وصل إلى شيء منه من غيره ... فهو شيء يسير لا يحصل به تمام المقصود (اهد من إغاثة اللهفان).

وتكلم الخطابي عن إعجاز القراءان البياني، فقال: «هو صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً - غير القراءان - منظوماً أو منشوراً إذا قرع السمع خلص منه إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه. ثم قال: يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها. فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات القراءان، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمتهم، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاةً، وكفرهم إيماناً» (البيان في إعجاز القراءان للخطابي).

٣ - قراءة القرآن في رمضان هي زادك طوال العام،
فاحرص على الاستعداد لرمضان في شعبان.

قال ابن رجب في (لطائف المعارف): لما كان شعبان
كالمقدمة لرمضان شرع فيه ما يُشرع في رمضان من الصيام
وقراءة القرآن ليحصل التأهب لتلقي رمضان وترتاض
النفوس بذلك على طاعة الرحمن. روينا بإسنادٍ ضعيف عن
أنس: كان المسلمون إذا دخل شعبان انكبوا على المصاحف
فقرؤوها وأخرجوا زكاة أموالهم تقويةً للضعيف والمسكين
على صيام رمضان. وقال سلمة بن كهيل: كان يُقال شهر
شعبان هو شهر القراءة. وكان حبيب بن أبي ثابت: إذا دخل
شعبان قال: هذا شهر القراءة. وكان عمرو بن قيس إذا
دخل شعبان أغلق حانوته وتفرغ لقراءة القرآن. وقال
الحسن بن سهل: قال شعبان: يا رب جعلتني بين شهرين
عظيمين فما لي؟ قال: جعلتُ فيك قراءة القرآن. اهـ.

قلتُ: لقراءة القرآن في شهر شعبان بالذات أثر عظيم
على إحسان وإتقان قراءته في شهر رمضان. ومعلومٌ أنه
من صحَّ له رمضان صحَّ له عامه كله.

٤ - احرص على سماع القرءان من أهل الصدق والخشوع.

وقد فقه السلف ذلك واهتموا به فكانوا حريصين على نقل بكاء وخشوع القارئ لكتاب الله من المحسنين والمؤمنين وهذا دليل على اهتمامهم بهذا الأمر وتأثرهم به؛ روى في الحلية عن ابن عمر أنه قال: صليت خلف عمر فسمعتُ حنينه من وراء الصفوف. وروى البخاري: «أنَّ عمر صلى الصبح بالناس فقرأ ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يُؤَسِّفُ : ٨٦) فسمع نسيجه من وراء الصفوف». وروى ابن أبي الدنيا عن سفيان الثوري: أنه صلى بالناس فقرأ الفاتحة فلما بلغ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الْفَاتِحَةُ : ٥) بكى حتى انقطع صوته ثم عاد فقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الْفَاتِحَةُ : ٢).

فاحرص على سماع قراءة الخاشعين الذين تتعلم من قراءتهم كيف تتدبر القرءان.

٥ - إذا كنت متفرغاً للعبادة فاجعل قراءتك كلها تدبراً، فإن كسلت فاقراً القرآن ولو من غير تدبر، فهذا أفضل من ترك القراءة. وأما إذا كنت مشغولاً بعمل مباح تكفّ به نفسك عن الناس أو بطلب علم شرعي أو بالدعوة إلى الله، فاقراً القرآن سريعاً وأكثر من القراءة ولكن خصّص لنفسك ورداً للتدبر تقرأه يومياً، وأفضل الأوقات في قيام الليل فإن فاتك فبعد الفجر إلى الضحى فإن لم يكن فبعد العصر. واعلم أن إحياء ما بعد المغرب من قيام الليل.

٦ - أكثر من ترديد آيات القرآن

فإن القرآن - كما قالوا - كالتمرّة تزداد حلاوتها كلما مضغت؛ فأكثر من ترديد آياته خاصة التي تتعلق بأسماء الله وصفاته أو ذكر القيامة أو ذكر الجنة والنار أو ذكر لوم النفوس وعتابها على تقصيرها في طاعة أو غير ذلك مما يزيد الأعمال القلبية في القلب. ويُعرف ذلك بالاطلاع على كتب التفسير وعلى الآيات التي استوقفت

الصالحين وأثرت فيهم، ومحل ذلك كتب الآثار مثل كتاب الزهد للإمام أحمد ورسائل الإمام ابن أبي الدنيا وحلية الأولياء وصفة الصفوة وغيرها.

٧ - احرص على الخير كله واطلبه قدر استطاعتك

ولن تعد من فواتٍ لبعض الخير إمّا لعذرٍ أو لغير عذر ممّا يحزنك - إن كنت مؤمناً - فيورث ذلك نفسك الحزن فتستشعر للآيات طعماً خاصاً كمن يحرص على الجهاد ولا يمكنه؛ فإنه سيجد آيات الجهاد في القرآن حلاوة خاصة وكذا من يحرص على الحج والعمرة ثم يُحال بينه وبينهما فإنه سيجد لتلاوة الآيات التي فيها ذكر البيت العتيق والحج والعمرة طعماً خاصاً في قلبه. وكذا الحريص على دعوة الناس إلى الله ونشر دين الدين، فإنه سيجد لقصص الأنبياء والرسول مع أممهم طعماً خاصاً، وقس على ذلك.